

اقرأ

بجبي صفي

قذيل أمِّها سيم

دار المعارف بمطبعة

قَدِيلُ أُمِّ هَاشِمٍ

بجی صفتی

قندیل اُمِّ هاشِم

۱۸ اقرا

کالمعارف بمطبع

اقرأ ١٨ - الطبعة الثالثة

ملترم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع. ٢٠

« قنديل أم هاشم »

١

كان جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب - وغريزة التقليد تغنى عن الدفع - فيهوى معهم على عتبة الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعلمين أشاح بوجهه ناقماً على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة ، أما أغلبية الشعب فتبسم لسداجة هؤلاء القرويين - ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم - وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلون : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى - وهو شاب - إلى القاهرة سعياً للرزق ، فلا عجب إن اختار لإقامته أقرب

المساكن بالحامه المحجب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ،
يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، في الحارة التي كانت تسمى
(حارة الميضة) . « كانت » ، لأن معول مصلحة التنظيم الهدام
أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت
للميدان روحه ، إنما يوفق في المحو والإفناء حين تكون ضحاياه
من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجراً للغلال في الميدان
أيضاً . وهكذا عاشت الأسرة في ركاب « الست » وفي حماها :
أعياد « الست » أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .
اتسع المتجر وبورك بلحدي فيه — وهذا من كرامات
أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته في الكتاب
حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، ، وأما ابنه الثاني فقد
دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدنا
ليكون فقيهاً ومأذوناً . بقى الابن الأصغر — عمى إسماعيل —
آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبيه وأعطر .
لعله خشى في مبدل الأمر ، عندما أجبره أبوه على حفظ القرآن ،
أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية
المعممين بهذا الحتاف البديء :

— شد العمة شد ، تحت العمة قرد

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس
الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ،
فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة
وكبير صبر . إن حرم التأنيق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك
أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد
الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ،
وتلاذات على سيئاته نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال
أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبيّاً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل)
أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيّب
ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو
أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم
على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية — بنت عمه ،
التيمة أبا وأماً — تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه
فى جلستها صامته كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر

معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينها المريضتين المحمرتي
الأجفان ، وأصابعها تعمل في حركة متصلة لا تنقطع في
بعض أشغال (التريكو) . من ذا الذي يقول لإسماعيل :
تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبّت فيهما خلصة حياة غريبة ،
وحساسية يقظة ، ولس متعرف ؟ ألا تفهم ؟ ألا تظن إلى
أن دليل اقتراب عاهة العمى في السليم هو أن تبدأ يده في
الإبصار ؟

— قومي نامي يا فاطمة .

— لسه بدري ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمة مترققة شخصه إلى شبح مبهم ،
فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل
في كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟
وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر
في نظرها انكشئت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بصفيرتها
فيتريث ويبتسم . هؤلاء الفتيات ! لو يعلمن كم هي فارغة رؤوسهن ! !
إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة

أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه في الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية . الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسدة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هي هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد . له في كل عنق طوق ، وفي كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبي . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لي وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاء ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذاً تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة

دارت أكواب الشرابات على الجيران ، بل ربما شاركهم المارة أيضاً ، وزغردت (ماشالله) بائعة الطعمية والبصارة ، وفاز الأسطى حسن - الحلاق ودكتورالحى - بحلوانه المعلوم ، وأطلقت الست عديلة بنورها وقامت بوفاء نذرهما لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفل والنابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف ، وتطير ملائمتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتنكرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا أصححت السمع وكنت نقي الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يحوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست - أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ - لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه

من عمل النهار، ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن
تسمع هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألاء من
نور بطوف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه
الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيات
للجلدان أن تحجب أضواءه . يمتلئ الميدان من جديد شيئاً
فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ،
يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت : فما وقعت عليه
يده من شيء فهو لابس . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراى يا فول .

— حلى وع النبي صلى .

— لوبيه يا فجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى
يحم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع
من الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة
قروشاً وملايم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف
وخاطر وفصال ، وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . وقد

يكون الكيل مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف
تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد
الرصيف . خليط من رجال ونساء وأطفال ، لا تدرى من أين
جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة
فتعفنت في كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس
اللقم ، يثقل الحمل ظهره ينادى :

— لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

— يا لى تكسى الوليه يا مسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان

تستهويان المطلات . فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب .

فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعها

الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأت

السلام ، وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع كرش الطرشي بقية براميله ، وترك أقدام

الخراط عملها اليوم وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال الترام

هنا وحشاً مفترساً له في كل يوم ضحية غريبة . يتقدم المساء ،
 ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى
 غليظة «حشاشى» . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع
 مراسينه ، سمعت ضجيج السكارى في خمارة أنسطاسى التى
 يلعبها أهل الحى بفكاهتهم « خمارة أنست » . يخرج منها سكير
 هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

— ورونى أجعص فتوة .

— جتك لهوه يا بعيد .

— سيبوه فى حاله داغلبان .

— ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة
 والمرح . ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه
 بود ، وينسى الجميع شكايته ، ويبدّر الرجل آخر نقوده فى
 الجوزة أو الكشينة ، وليكن ما يكون ! تقل أصوات اصطدام
 كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل
 المشنات ، عندئذ تنهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير
 بكل ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبههم عليه

مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقيها المحيط .
 صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد في روحه أقل مجاوبة .
 لا يتطلع ولا يمل . لا يعرف الرضا ولا الغضب . إنه ليس
 منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل
 ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه
 عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل
 إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب في
 أعماقه ، فتصبح في كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرتـه
 بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو
 فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس
 ويكاد يجن لوحدته . بدأ يشعر بلذة غريبة في أن يندس بين
 المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . في هذا الزحام
 كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ،
 يحس بها من صدمة هيئة أو احتكاك وامض . في وسط هذه

الأجساد كان يشعر بلذة المستحم في تيار جار لا يبالي نقاء الماء . . . روائح العرق والعطر لا تكرهه ، بل يتشممها بنجشوم الكلاب . لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات — فسيدي العتريس مأمور أن لا يصعد أحداً عن الساحة — يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين من مقدار مسطور . كان براهن من قبل فلا يظن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق نظره بهن وتتريث . واختص بانتباهته فتاة تأتي كل يوم زيارة . سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هي نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف . كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحل غير مكترث . أما هي ، فكأنما تسير إلى غرض ، مالكة كيائها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها . ولو دققت النظر لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديري — خادم المقام — وسطهن كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ، ويسأل عن الغائبات . يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى

طريق صندوق النذور . يتبدل رضاه فجأة ، فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج . تأتى إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم ، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشنى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاعة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة . ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعدُ أن تشملها برضاها . لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر بعدُ من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة الوحيدة للآخرة .

في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درد يرى ، ومع ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة . فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هي هي . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكثرها تحت بلاطة ؟ يتهمة زملاؤه أنه يحرقها في الحشيش ، بدليل سعاله الذي لا ينقطع ، وبدليل ما في طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج ، لا يمر العام إلا ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده على المقام ، واعتاد أن يمر عليه في أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى

واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذى حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسى إسماعيل ليلة الحضرة ، يحجى سيدنا الحسين ، والإمام الشافعى ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينه ، فى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلمات الناس ، لو شاؤوا لرفعوا المظالم جميعها . ولكن الأوان لم يثن بعد ، فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضاً ، فكيف الاقتصاص له ؟ فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لآلاء يخطف الأبصار . . . إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينيّ إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى تزم شفتيها . وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل : وسان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت .

يصفو ضوءه الخافت على المقام، كإشعاع وجه وسيم من أم
تلقم رضيعها ثديها فينام في أحضانها . ومضات الذبالة خفقات
قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام
كالخارس مبتعداً تبجيلاً . أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل
نور يفيد اصطداماً بين ظلام يحجم وضوء يدافع ، إلا هذا
القنديل فإنه يضيء بغير صراع ! لا شرق هنا ولا غرب ،
ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد .
وانتفض إسماعيل ، لا يدري ما هذا الذى مس قلبه !

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من
الامتحان وقلبه واجف مغمم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا
به ، يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة
الطب ، فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ،
ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين
إن شاء ، أو أن يدرس للبكالوريا من جديد ، ويضيع سنة من

عمره . وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنه قلقاً وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتبني بتعليم ابنه إلى الحدّ الذي بلغه ويوظفه بالبكالوريا، إن لم يكن للمساعدة ، فلتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ . . . لا أدري من الذى قال له :

— لماذا لا ترسل ابنك إلى أوروبا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنياً في الشهر ، غير ما يلزم لابنه في أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها في سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقي للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها بصوت رقيق :

— توكل على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامهرب من الفرق، فرضيت صامته وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه ! كلمة لها رنين وسحرتسلل ، كروح مبهمة لا يطمئن لها، إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قرية العين . بلاد برّه ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفر من قبوله ، لا عن ذلة . بل للزود بنفس السلاح . أما الأم ، فنذ الآن تركبها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد بره فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجحش والأعبيهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل ، فلا تدري كيف يعود . إن عاد !

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ، واشترت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقي من

برد أوربا ، واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .
 واجتمعت الأسرة صامئة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون
 دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتي إليك أن تعيش في بلاد بره كما عشت هنا ،
 حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرّة فلن تدري
 إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بني نريدك أن ترجع إلينا
 مفلحاً لتبيض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على
 الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء
 أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :
 واعلم أن أمك وأنا قد انفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية .
 فأنت أحق بها وهي أحق بك . هي بنت عمك وليس لها
 غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن
 يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده في يد أبيه ، وقرأ الفاتحة .
 بينهما أم تبكى ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .
 كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتي في يوم ، ولكنه لم

يتوقعها في تلك الليلة . فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ،
وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له :
« احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه
أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب
من امرأة . ولأنه لكاذب — وإسماعيل لا يكذب — إذا أنكر
أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً . ولا سيما أخيراً !
إلى نساء أوروبا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى إلى الميدان
وقد اقترب الغروب تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات
الباعة التي ألفها . وخيّل إليه أن في الميدان حركة غير التي
عهد ، كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . ما لم لا يلوون
على شيء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد
من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . في الميدان
حركة الخمل تتعارض وتتقاذى وتضرب في كل اتجاه . قاده

قدماه إلى المقام، فوجده ساكناً على غير عادته . الشيخ درديري واقف مطأطي الرأس، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام، حتى إذا جاء للسور الذي يفصل مكان النساء عن الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه . هي فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . ستر إسماعيل في مكانه وسمعها تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستارة على الولايا ، لا تغضي عينيك ولا تشيحي بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذوها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لروؤف . إذا لم يقصدك لمرضى والمهزومون والمحطمون، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا نُسينا فاذكري أنت ! متى يمحي المقدّر على . أيرضيك أن جسدي ليس مني ، فما أشعر بالآلم وهو ينهش نهشاً . ها هي روحي على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة، تريد أن تفيق . منذ غادرني رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض في يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسي ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم رحمة الله قريب ؟ هذرت لك يوم يتوب المولى على أن أزين مقامك الطاهر

بالشموع خمسين شمعة ، يا أم هاشم يا أخت الحسين !
 ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه
 القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزم بأن أم
 هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادها
 قبلة بقبلة ؟

هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم
 تتحرك قدماه . أراد أن يفضي لها بكل ما فى نفسه . إن لحظة
 الانتزاع من الأسرة والوطن ، لمواجهة الغربية والوحدة والمجهول ،
 تضنى أعصابه وتصر قلبه . لماذا يهتز لمراها دون سائر النساء ؟
 أوامهم هو ؟ لا . إن صوتاً خفياً يريد أن ينطق فى قلبه ويتكلم
 ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا
 الصوت وتخفته . ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل
 من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على
 فؤاده . وقفته فى صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده
 معلقة بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هى آخر
 ما يذكره عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه
 من المقام شمله من أخمص قدميه إلى رأسه ، كالتيار المندفع

الغيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد
خلاله الزمن ترتيبه ، والمرثيات اعتداها ، والأصوات صدقها
وفروقها . وداع الأسرة : وما أمره ! فى الدار وسط النحيب
والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة
وصغيرها . إننى أتخيله صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار
الشيوخ ، بطيء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ،
كل ما فيه ينبئ أنه قروى مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى
إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل فى أمتعته قبقاباً ، فقد سمع
الشيخ رجب أن الضوء فى أوربا متعذر لاعتیاد الناس ليس
الأحذية فى البيوت . كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها
وعرضها وتكتها المحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك
و(المنين) . . . من عمل أمه وفاطمة النبوية .
وسافرت الباخرة .

٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .
من هذا الشاب الأنيق السمهرى القائمة ، المرفوع الرأس ،

المثالي الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :
 - أراهن أن روح طبيب كاهن من القراعة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة ، ورشاقة أصابع هى وريثة الأيدى التى نحتت من الحجر الصلد دى تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فلما إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ، لا تنفع فى إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . ونخذ مكانك فى الأسرة ، فستراها كالألة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدري ؟

لم يزم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة

مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية .
لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشم في النسيم رائحة
لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله
وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال ،
نظيف ، وحيد . لماذا تعتمد البواخر كل هذا التلکؤ عند
الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تنهادى بدلال
العودة ، فما لها وللمركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله
موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية .
في عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة . هذا هو
الفنار المتمنطق . وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون في
مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر
إلا بانبساطها . ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ،
ولا على شاطئك جبال تصد . أنت دار كل ما فيها يوحى
بالأمان . . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط
الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، ألقى كالقرد في مقدم قاربه
يصطاد . جلباب الأزرق ، أو الذي كان أزرق ، ممزق مرقع .
وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فراها

مطلّة على الصياد ، مغرورة عيناها بالدموع وسمعتها تتمم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد ، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها
كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات
لها أن تصدم عالمه المقفل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة
يوماً بعد يوم . همّ إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه
السلام . أو يلوح له بمندبل . كيف تسقط المقاييس وينهزم
المنطق في مثل تلك اللحظات التي تتأجج فيها العواطف ،
وتصفو القلوب ! ورن جرس إيداناً بموت الباخرة : فأصبحت
جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ،
وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون ، وحمالون وصيارفة
وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالّت النداءات ، وكثرت
العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار : غير مغمور .
يلتقط بنهم كل ما يصل إليه ، وعلى شفثيه ابتسامة حلوة
مطمئنة . له أذن فارزة واعية . ونظرة حية يقظة تريد أن ترى
كل شئ . وتفهم كل شئ . إذا دققت النظر إليه . وجدت
تكورات وجهه قد زالت ، وشُدّ شداقه في أخذودين . كانت

شفتاه مرتختين ، قلما تنطبقان . أما الآن فقد ضمهما عزم
ووثوق . يجتاز الجمارك . وفي العربة يستمع لوقع عجلاتها بين
الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر .
كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوة من ماضٍ بعيد . بعيد
كالحلم كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء
بعد سبع سنوات قضاها في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب ؟
كان عففاً فغوى ، صاحياً فسكر : راقص الفتيات وفسق .
هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة . تعلم كيف
يتذوق جمال الطبيعة . ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن
في وطنه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ بلسعة برد الشمال .
إن لم يكن له في هذه الفترة سوى (ماري) زميلته في الدراسة ،
لكفى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرق الأسمر
بلبها فأثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها . كانت هي التي
فضت براءته العذراء . أخرجته من الوحوم والحمول إلى النشاط
والوثوق . فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : في الفن ، في
الموسيقى ، في الطبيعة . بل في الروح الإنسانية أيضاً .
قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياتي برنامجاً أسير عليه .
فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل
مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » . يكلمها
عن الزواج . فتكلمه عن الحب . يتحدثها عن المستقبل ، فتحدثه
عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن
شيء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ،
هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى ، فكانت تقول
له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه
يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك فى نفسك » . إن أخشى
ما تخشاه هى : القيود . وأخشى ما يخشاه هو : الحرية .
كانت هبتها له فى مبدأ الأمر محلّ حيرته ، فكانت خيرته
محلّ سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ،
ويهتم كيف يكون حكمهم عليه . وإذا لقي من تريحه المجاملة
لا يجد بأساً فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام
بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هى ، فتهيم

بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل . ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والردل ، والحزين ، والمنافق . فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تظمن لصحبته .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم فى أوربا . يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يماشى منطقهم منطقهم المريض . لحظته (مارى) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به . كل يطلبه لنفسه . فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرق يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مردولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها فى الكتمان لا فى البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم ت اخترع إلا للحكم الجماهير . والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه ، فرض وانقطع عن الدراسة ، واقترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت في نظره أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته . أخذته في رحلة إلى الريف بأسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيبه من متعة الحب أشكالا وألواناً . من حسن حظّه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة . إن اطرحت

الاعتقاد في الدين ، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم .
لا يفكر في جمال الجنة ونعيمها ، بل في بهاء الطبيعة وأسرارها .
ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (ماري)
عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ،
بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما
رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل
فنان يمل عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، وأصبح
كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الحديد . . . على
أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقاءها
لآخر مرة . دعاها فلم ترفض ، وجاءته . ولم يسأل نفسه : أعلى
علم من صديقها الحديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة
أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر .
كانت ضميتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع .

وهتف به وهي تنصرف على دراجتها :

— آمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟

فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب

ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة . فلم التأسى والبكاء على ثمرة ، والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . الآن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هي التي نبهت غافلاً في قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ، هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه . في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت . عليها الحلى ، و (دواق) ليلة الدخلة . لا رعى الله عيناً لم تر جمالها ، ولا أنفأ لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمّن . إنه حدّ ق

فى الموت مراراً ، وجس المجذوم ، واقترب فـه من فـم المحموم .
تـرى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمـه
من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه فى حبه لمصر أن
لا يرى منكرأ إلا دفعه . علمته (مارى) كيف يستقل بنفسه ،
وهيأت لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم .
ليس عبثاً أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن
سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه
هوّن عليه القتال ومتاعبه . بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى .
وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف ، أو خطيب فى أحد
المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدري لماذا
ضعف عن لقاءهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين
الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يلتقى أعزاه فى دارهم ، وعلى
نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز .
ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ما هو
مدين به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذى أرادـه له أبوه ،
وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض

عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في أرقى أحياء القاهرة .
وسيدهش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن
واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أغنى أباه الشيخ من
العمل ، واشترى له أرضاً في بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم
إسماعيل . لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ،
وسرى عنه إذ قال لنفسه :

— ماذا في أوربا كلها يصلح لأبي وأمي ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكرها تثير في نفسه بعض الاضطراب ،
لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر .
هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجرى كأنما اكتسحته
عاصفة من الرمل ، فهو مهدم معمر متخرب . الباعة على المخطات
في ثياب ممزقة ، تلهث كالحیوان المطارد ، وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربية من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق
الذى لا يتسع لمروور الترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه :
قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم
والأسى ، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ،
فاختلطت دقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة
نساء القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمه !

٨

يا إسماعيل . ما أفساك ! وما أجهل الشباب !
كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل
وجهه ويديه ، تشفق وتبكي . يا لله ! كم شاخت وتهذلت
وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود
لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :
— ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من
طينة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن
لم تنحن قامته . فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من

راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كونه بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل في أسكتلندة مع رفيقته . يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظره من طرف عينيه تطوف في الدار ، فإذا هي أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو - رغم مر السنين وطول الصحبة - كأنها مهاجرة في دار غربة . ولماذا هم على البلاط وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل ، وهي تزغرد ، فيزجرها ويقول لها :
- بس بلاش خوته ، يا وليه اعقل .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فإذا أمامه فتاة في شرخ الصبا . ضفیرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ، وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف .

هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا : ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض . لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك نفسه عن التساؤل ' كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش . وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة ، قبل أن تنامى . أقطر لك فى عينيك . ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة

في عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمي ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه

كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري . إنه يذكرك ويتشوق

إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيتَه ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب

أنه — وهو طبيب عيون — يشاهد في أول ليلة من عودته ، بأية

وسيلة تداوى بعض العيون الرمد في وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص

عينيها . فوجد رمداً قد أثلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد

العلاج المهدى المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت

الحار الكاوي .

فصرخ في أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك . أنت مؤمنة تصلين ،

فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمم ولا تبين .
ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، في جلاباب أبيض
قصير ، وعلى رأسه طاقة تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون
مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل في تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته
ما أيقظ في نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا
الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونظقت أمه أخيراً تستعيد بالله وتقول له :

— اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابني . ربنا يكملك بعقلك .
هذا غير الدوا والأجزاء . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .
وإسماعيل كثور هائج لوحث له بغلالة حمراء .

— أمي دي أم هاشم بتاعتكم هي اللي ح تجيب للبنب
العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذي
لم تجده عند الست أم هاشم .

— يا ابني ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز .
جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا علي
الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .
— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . في هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان . كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :
 — ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته في بلاد بره ؟
 كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يحف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج في عالم غير هذا العالم . شب على قدميه واقفاً . لاشك أن في نظرتة ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبثت بها لحظة ، ثم تركتها له . فأخذها من يدها بشدة وعنق ، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها في الطريق دوى القنبلة الأولى في المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً . ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف في نظرتهم بعض الرعب ، فتزايد هياجاً وانطلق إلى الباب . وفي طريقه وجد عصا أبيه . فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة في الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يمجج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش في عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيواني ؟ وما هذا الأكل الوضع الذي تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق في النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنسانى . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار ، أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه

ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت في الصحراء ، تطنّ عليها أسراب من الذباب والبعوض ، وبغوص فيها إلى قوائمه قطع من الجاموس نحيل يزدحم الميدان ببائعي اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الفقير ، والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . في جنباته مقاهٍ كثيرة على الرصيف بجوار الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء منذ سنين . الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب . مكحلة العينين ، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصة التي تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحركون بها كأنهم كلاب لم يروا في حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات الخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

— استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك .
 ما هذا الجدل في غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة في سفاسف ؟
 تعيشون في الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ،
 وتلوزون بأموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع
 من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالاً .
 كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على
 صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض
 المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة
 بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام ، وجرى إلى الجامع ودخله ،
 واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة
 من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه ،
 واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خائفة .
 أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان
 قائم للخرافة والجهل . يحوم في سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه .

حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين
 بالأسوار . فيهم رجل يستجدي صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه
 إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن
 تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام ،
 فوجد الشيخ درديرى يناول رجلاً معصوب الرأس بمنديل نسائي
 زجاجة صغيرة في حرص وتستر ، كأنما هي بعض المهربات .
 لم يملك إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس
 عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل
 فحطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ .
 — أنا . . . أنا . . . أنا . . .

ثم لم يستطع أن يتم جملة . (ومن يدري ماذا كان سيقول ؟)
 هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى
 عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم
 على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام ،
 لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى ، فأنقذه واستخلصه من غضب
 الناس وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا سى إسماعيل ابن الشيخ
رجب . من 'حتتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة
فى ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظلت
بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك
ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكنم ألمه وغيطه ،
وسكبت فاطمة دموعها مدراراً .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركه العناد ،
فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق
قليلاً بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون
الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه
بغباوة ، ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ،
وينبئ لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا

ترك لإنجلترا بريفها الجميل ، وأمسياتها الهنيئة ، وقسوة شتاها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحقيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد في بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا في الذل قروناً طويلة . فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع في فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التي لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان الذي يكرهه ، فهما حاول فلن يستطيع فكاًكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب . في مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً ، وعاد يحمل حقيبة ملاءى بالزجاجات والأربطة والمراد ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج في أوروبا أكثر من مئة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق في واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها

مرضها ، بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه .
وتجنبه أبوه وأمه ، ولم يعودا يعارضانه في شيء إشفاقاً على صحته .
في الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرّ يوم
وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ،
ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .
ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية . وقلب
جفونها ومس ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه
نفعاً . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من
العمى ولا ينقذها في علمه حيلة .
أخذها إلى زملائه في كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ،
فوافقوه على طريقته في العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .
فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهي
تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطفأ آخر بصيص تنعزى به .

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة
أمامه ، وعمها دليل على عماء . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذي

حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملاً ، ولا هو بقادر ولا راغب في الالتجاء للحكومة لتعيينه في إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التي أحضرها معه من أوروبا ، وسكن في غرفة ضيقة في بنسيون مدام إفتاليا ، وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه في يدها ، حتى لتكاد تضع في كشف الحساب تحية الصباح . أو تستقصيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها في إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيوبه . أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفي الصباح سألته أن لا يطيل السهر في غرفته حرصاً على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج في مصر من طينة أخرى غير التي رآها في أوروبا . كان يحبس نفسه في غرفته ، فطرده هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفي كل ليلة يجد نفسه - ولا يدرى كيف - وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها

عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث . . .
وهكذا يظل واقفاً في الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ،
شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداءات القديمة . هى هى لم
تتغير . ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه
في الميدان ! مساكين ! كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم
الجزء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أوجباً فيهم ، ومع
ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ،
ورفضوا أن يروضعفه أو خيانتة . هذا شعب شاخ فارتد إلى
طفولته. لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوه
واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية.
تساءل إسماعيل : هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة
زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون
فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الحلف ، واستغلال
بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء
النهار. يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو.
ولكن . لا . لا . . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله
وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل

الشرق وجهله ومرضه ؟ لقد حكم التاريخ ولا مرداً لحكمه ،
ولا سبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمناً ثم ذوت .
يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ، ويقضى ليلته يفكر
كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى
موقفه المعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتداءً بطيل وقفته في
الميدان ويتدبر : في الجو ، في الهواء ، في المخلوقات ، في
الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود
خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد
قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا
بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها
فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هي أمامه خرساء ضئيلة ،
ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة .

ودار بعينه في الميدان . وتريثت نظرتة على الجموع

فاحتملتها . وابتدأ يتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه ، فتذكره هي والنداآت التي يسمعها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي) . اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادی ، بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط في قلق وحيرة : وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن . وإذا دخلت المقارنة من الباب : ولّى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . . فانتبه لها إسماعيل ، ففي قلبه لذكرها حنين غريب . ربّ على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالي . لا يشعر في ليلة أخرى - حتى ولا ليالي العيد - بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوت لله . هي في ذهنه

غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به يتبهِ على صوت شهبى وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العريس ولا ريب . رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفضر إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهرأ ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لا علم بلا إيمان . لأنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعد الشعر . هى نعيمة ! ! قد زال انطباق شفيتها وبدت لها سنآن . وإن تكلمت فصص من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى

بنذرهما بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل
في كرم الله .

أما هو - الشاب المتعلم ، الذكي المثقف - فقد تكبر وثار ،
وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل في مكانه يضيء كالعين
المطمئنة التي رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن
القنديل . وهو يضيء ؛ يومئذ إليه ويتسم .

وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه
إسماعيل يقول :

- هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري ، أعطني شيئاً من
زيت القنديل .

- والله أنت بختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ وليلة
الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيدة الزجاجة وهو يقول في
نفسه للميدان وأهله :

- تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذاني ، ومن كذب على ،
ومن غشني ، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقذارنكم

وجهلکم وانحطاطکم ، فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ،
أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار
واستبد ، كان إعزازی لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

— تعالى يا فاطمة ! لا تيأسى من الشفاء . لقد جئتك
ببركة أم هاشم ! ستجلى عنك الداء ، وتزيع الأذى . وترد
إليك بصرك فإذا هو حديد . . .
وشد ضفيريها واستمر يقول :

وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف
تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس
عندما وجد الداء متشبهاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزعزع .
ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل . ففاطمة تتقدم للشفاء على
يديه يوماً بعد يوم ، وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته
فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه
وقلبه عن الدهشة التى كان ينحشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتح إسماعيل عيادته في حي البغالة بجوار التلال ، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات . والغريب أن شهرته استقرت في القرى المحاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها . فاحتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج . كم من عملية شاقة نجحت على يديه . بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه . وترك المبالغة في الآلات والوسائل اعتمد على الله . ثم على علمه ويديه ، فبارك الله في علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

» * *

وكان في آخر أيامه ضخمة الجثة . أكرش . أكلوا منها ،

كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهمة ، تتبثر على
أكماله وبنظونه آثار رمد سبائه التي لا ينفك يشعل جديدة
من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على
جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من
يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست
ضحكاته في حلقه ، اجتمعت في عينيه . فليس هناك عيون
أقوى على التعبير من عيون المصلورين ، يكاد يقفز منها
إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ،
وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شيء :

— ليس كل ما في الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار
ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حي السيدة بالجميل والخير ، ثم
يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشيء ، وذلك
من فرط إعزازهم له . غير أنني فهمت من اللحظات والابتسامات
أن عمى ظل طول عمره يحجب النساء ، كأن حبه لمن مظهر
من تفانيه وحبه للناس جميعاً .

رحمه الله . . .

السلحفاة تطير . . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدري ؟ ربما كان حياً يرزق ! والواقع أنني أعرفه ، بل تربطني به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة . أسارع وأقول إنها - والحمد لله - حارة مسدودة . فمثل هذه الحارات وحدها هي التي تعمل في تصفية الود بين الجيران ما تعلمه الزجاجة في تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندي - بطل هذه القصة الخيالية - : واجهة طويلة ، بها الباب على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلا أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية لزفات والمواكب و « الخناقات » إلا بثني رقابهم ، وبخطر لوقوع في يد رجال الإسعاف .

وداود أفندي لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية

وعاش ، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه . والمعروف أن له أيضاً استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة ؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة . كلنا نجله لغناه ، و (نستعبطه) لنزوله إلى مستوانا . ولعلى كنت من بين سكان الحارة ، أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة . كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس ، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره . دعانى لمجالسته ، وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدى .

فى هذه الجلسات تأتّى لى أن أنصت أو أحتث على القول ، حتى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها — مع الأسف — شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين ، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل ، فأصبحوا كالحیوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . فهم لذلك أسرع انقراضاً . هو بالنسبة إلينا غنى ، ولكنه فى الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح ، ولا يسلكه فى الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل

وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ في كرمه وجهله ،
 في طبيته مع معارفه ، وازوراره بل نفوره من الغرباء . تجافيه
 عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى . كأنه يعيش من وراء سد
 الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين
 الحين والحين يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلا دواء
 لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام في أغلب أيامه .
 وهو ككل أولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف ، وجدت
 فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية
 بالحياة في معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه في إحدى الأمسيات ،
 فرأيت صبي شيخ الحارة قادماً علينا ، مجدداً في خطواته ، ساهم النظرة
 كأنه في غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد في بوطة
 أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية .
 وعيونه المخبثة تحت جفونه المرتخية تبدو كالحرزة الزرقاء
 لا تفرق عن عيون التيس في جمودها ومكرها . حتى إذا وقف
 أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود
 أفندى . ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة في لهف حول كتفه ،

ووقعت على الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

— حضرتك مطلوب في القسم باكر .

— ليه ؟

لا جواب .

— عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لا يريث لبيكى مع أهالى الميت . ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور — على أذن داود أفندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود أفندى قلق ، حائر . بين حين وآخر يسألنى :

يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى ، وأشد ما أكره أن

أتخطى بابيه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس !

أعوذ بالله ! من الذى اشتكأنى ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملتق بالى إلى همه التافه ، ولكنى انتهت وعجبت

هن أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الأحيان من
 الوهم والشك في براءة ماضيهم . الآن في قلوبهم نازعاً خفياً إلى
 الإجرام ، فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة . أم هم يستيقظون فجأة
 إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟ !

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويحيى ،
 ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له في
 الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام . لا يشعر بها كما
 لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طي ضباب
 كثيف بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى .

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه . لكنني خشيت أن
 يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادي الذي شبت منه ليلة
 بعد ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً . لأن الكلمة
 الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة في البقاء على رأس
 الحارة ، وقد طابت الجلسة وشمطنا الغروب بسحره . في كل
 مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة
 تحتضر ، كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت — علم
 الله لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظرفية — أستثيره وأحرك مخاوفه .

ونقلت الحديث من البوليس وفضاظته، إلى البلطجية وأفاعيلهم .
 رئيسى فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدري لماذا . وآخر أهمه
 بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة : وهؤلاء البلطجية حيل
 لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل : وربما سبقوا بالشكوى
 ليستولوا على أجر التصلع . . . ومن يدري ! ربما وجدوا فيك
 يا داود أفندى بطيبتك خير صيد، فلدوا حولك حباثلهم . ثم إننى
 لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبي شيخ الحارة
 ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به
 إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن
 استحلقتنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً .

* * *

لا أدري هل تأخرت فى النوم عفواً، أم أحببت أن أستريح
 من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس . فخرجت
 من الحارة مهرولا كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة
 وأنا أجرى بباب بيت داود أفندى، ونخيل إلى أن مطرقته - وهى
 من نحاس على شكل يد مضمومة - تنبسط وتشير بسبابتها إلى .
 إلا أن لمعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين

والمرضى والمنكوبين بقضبانه . وانتقبض قلبي خوفاً على صديق
داود أفندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب
مسالم مثله ، ويكون مثله عند دخول القسم كمثّل حيوان أليف آكل
عشب يجد نفسه فجأة في غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع
ذلك - وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف
اليدين - نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمّح مفقود وسط آلات
المطبعة وهى تضج وتضطك في حركات مفاجئة منتظمة كأنها
نفضات مقعد محموم . . . انتبّهت إلى ذكره وأنا أمام داره
في عودتى للحارة . رأيته في انتظارى جالساً على كرسيه متلفعاً
بعاءته . عندما قاربته حمدت الله أنى وجدته في حدة وغضب
أنسياء خلنى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت
مع الأسف أن لعبتى بالأمس في إثارة مخاوفه وتحريضه على
رجال البوليس . قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا
أتوقعها . أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت
الدعوة إلى القسم فى شأن مخالفة هيئة : إلقاء ماء قدر فى الطريق .
ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظلة وقلة الأدب ، وداود
أفندى من الكبرياء وقلة الصبر ، بحيث وقعت الواقعة بينهما . ثم

لم أستطع أن أفهم من داود أفندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس : بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته ، لكنه قاطعنى قائلاً :

— لازم أطلب رد شرفى .

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما—لا أمارات الغضب، بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبى وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكنى عدلت سريعاً ، لأننى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل : وأخذ يتكلم لأول مرة بكلاماً لا يسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله ، فهدتني الحيلة أن أقول له :

— رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !

قلتها لأننى أعلم أن لهذه الحملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق بريقاً وخبلاً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور

من يغضب للإهانة، ومع ذلك تنهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ أى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الجملة فى داود أفندى ، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن من من المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى رجال الحكم ، وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه ، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانته ، بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرّاً باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ، وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إدارياً . وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ، ودفع

مقدم الأتعاب جنبيين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندي .

عمود تلغراف ، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعه .

* * *

دفعته دفعا وسط الزحام — فهو نخمة — إلى قاعة الجلسة .

وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتاعثه بين يدي

القاضي ، ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحشرنا »

في مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندي

شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة

الخيالية ، لأنني تأملت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف

اليدين . جلس بجاني كله عيون وآذان وليس منه لسانه

أخذت أراقبه من طرف عيني ، فوجدته كالكشفة في بحر ، ينعكس

فيها أقل اضطراب لسطحه علواً وهبوطاً ، ومداً وجزراً . اشتمله جو

الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا

يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ .

وأي سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور

بين همس ووجوم ، ومحاورات التماضى والمحامين والنيابة تنقله
إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على
الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط
الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده . وإذا به محمول
محملق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والخنود ، نداء الحاجب .
تلك التعابير القضاية التى تنحنى لها الجباه إجلالا ، وهى ليست
إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه .
ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فدفعته مرة أخرى - كالحم الثقيل - وسط الزحام خارج
الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلغ ريقه لأول مرة . وماذا
كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى
اضطرابه أقل شفقة . بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن
تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكثودين
المنصبين عرقاً فى زحمة الحياة . ولكنى ما كدت أضع ذراعى
فى ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبى
وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى

جانيننا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسباستهم . وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبى . ولما افترقنا على رأس الحارة ، لم يقل لى داود أفندى كعادته : «نتقابل هنا » ، بل قال :

— قابلنى بكرة على القهوة إياها .

دفع داود أفندى جنبيين آخرين للمحامى ليضمن حضوره فى الجلسة القادمة . كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام — ولعلها أسابيع — ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاى ، ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم ، وتجرى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيته فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لى معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفينى ثواب المسعى . اتفق معى داود أفندى على

أن يقوم هو بالانفاق على الدعوى، نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسر إلى داود أفندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيته يحمل «دوسيا» في يده، سائراً مجدداً إلى المحكمة . . .

* * *

حدث بعد ذلك أنني نسيت جارى العزيز داود أفندى نسياناً تاماً ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها فى صدرى ، ولازمنى الليالى تنغص على نوى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية! أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت قدمى ، وكم أرقى ماء وجهى وجف لسانى - ويغنى قولى هذا عن التفاصيل - حتى نلت رغبى ، وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله . وتخلصت أيضاً من الحارة المسدودة اللعينة : وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار ، وفى يدى قرطاس بلح آكل منه . مررت على

مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندى جالساً أمام طبق فول مدمس . داود أفندى « بجليية » وجاكتة ، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها في الزيت ، ثم تحملها كتلة واحدة - كالكرة - إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبي انشرح ، وأنتى سررت كل السرور لتحسن صحته . ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أنني شعرت بموجة شوق قوية تملؤني ، فجريت نحوه ومددت له يدي مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كياني قفزاً .

— داود أفندى ؟ سلامات ، ازيك !

ولكنه ترك يدي ولم يأخذها ، ولما رفع إلى عيني لم تستقر نظرتي على وجهي حتى رأيتها تمتلئ بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، وإذا به يصرخ في وجهي ويشيح غنى :

— روح الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي !

تملكتني الحيرة فسمرت في مكاني . أي جرم أتيت ؟ وماذا فعلت ؟ لا أذكر إلا أنني كنت دائماً تحت أمره كأنني عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملي

لأكون في خدمته ، ولا أذكر أنني خنته أو آذيته أو أضللتته .
ولكن هذه المحاولات لم تفلح في سند سياج كنت أقيمه
بكل جهدي طول الوقت ، لتتحصن وراءه نفسي ، ولو لتعيش
في دنيا أوهامها في حمى من شك خفي بدأ يدب في قلبي . . .
وإذا بالسياج يرغمني وينهد ، وتبرز لي من ورائه تحملق في وجهي
كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ،
راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون
يدك إلا أذى ، ولا قدمك إلا سوءاً) . شعرت في جسمي ببرودة
الموت ، وعشت زمناً رثى لحالي وأقول : يا لي من مسكين !
ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسي للحياة —
والحياة تقوى على أقوى الآلام ! — بقولي لنفسي :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ،

ولكنها ليست خرافة . . .

وهكذا من أول وجديد .

كنّا ثلاثة أيتام . . .

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبل زوجته ، في كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجو ، وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة الله . . .

فسماها نعمات .

لم يدرك أن في أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل في الملكوت . . . وعاد إلى سؤال ربه في صلاته ، وأطال تضرعه في ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالخشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى الثانية عطيات .

«نعمات» و«عطيات» . لم تكن أسماء بقدر ما هي تلميح

بأن الرضا عن اضطرار ، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق الوعد غداً . حرك الألب الأبر كل ما في قلبه من شغل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قلر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله وتذله . فاستجيب في يومٍ دعاؤه . واستقر في بطن الأم سرّ الصبي الموعود .

حيثُذ مات أبي ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته : أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده . وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود . إن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال .

وهكذا وُلدت يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبي . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة على الجدار ، أراه يبتسم لي ، ويكاد يناديني . . .

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب ، حتى ماتت أمي . كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت على . وسرت وحيداً منفرداً خلف النعش . أما شقيقتاي . نعمات وعطيات ،

فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الحدود وهما متدليتان من النوافذ .
 رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف
 العيون . فى تلك اللحظة استفتت ، وأدركت أننى أصبحت رب
 أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان . نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتى .
 ليس لهما غيرى . قومت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع
 الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ،
 عبارات التشجيع والعزاء ، والتوصية بالصبر والرجولة .

* * *

ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ،
 وإذا بى فى صحبة شقيقتى من أهنا الناس . ثلاثتنا فى مستقبل الشباب
 ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره ونضرته .
 تساوى طليق ، لا تضغطة شيخوخة مولية . ولا تأخذ بخناقه
 طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للإنفاق
 على ثلاثتنا ، فقد دم الصبي وحجزت البنتان فى الدار . وكذلك
 نجاهما الله من الجامعة بأدائها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير
 ملتو يضل فى الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت
 أنثى جسماً وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جوال . صحبة

أترك لى صفاؤها مطمعا . . . فمن مثلى من الرجال تحوطه
فتاتان — لافتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟
"نقل" ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ،
دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه
على وجوههم كل صباح فى المكتب . . . كانت نفسى قانعة
وجسمى سعيد . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى .
حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته .
هى أكثرنا رزاة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت وتدير خزينه .
وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التى من أجلها نحرص —
فى خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق
حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى
تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن
تعر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها
الفرح بهديتنا . . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركة
عطيات ، فتعذب بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأى القرد تفلتى
رأسه وتناغيه . . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة . وهى
تخطط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا

سعداء فى هناء يكمل بغضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك ، وفى الناس إخلاص ومجبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير والتحريرض عليه !!

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! ». ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح ، وأنت قابع فى داركم القديمة المحتبئة بدرب الحجر من وراء خارة التمساح لا تزور ولا تزار . . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها ؟ »

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتي على غفلة منهما وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الحميلة يختبئ قزم من الحزن والحerman : له عين البوم ، وأسنان الفأر ، وعناد الثور ونزق الجدى . . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى .

فاستبانتي لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً
 عارياً قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولابد من
 التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب ...
 رسمت لنفسى برنامجاً ، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد ،
 حتى شقيقتى . لن ألتجأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل —
 عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار بين عجزة . أليست
 المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ،
 ولنذهب إليه ، وفى موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياذه
 احتيالا . سأعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقها فى طريقه
 يدي . هذا صيد حلال . وأى شئ أعظم ثواباً عند الله من
 تدبير زوج صالح لأعز الناس على ؟

بعت بعض الحلى ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق
 التوفير ، وأجرت شقة كالحق — ولكنها غالية على ! — فى
 جاردن ستى ، واشترت لها بعض الأثاث من معارض سليمان
 باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألغى الرق فأعتقينا
 لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكجيات ، وأنت أيتها
 الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة

بالصدف ، منك إلى صالة المزداد خطوة مباركة ! وداعاً ،
وداعاً . فنحن في دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى
فراق . أنتظرين أن أرتيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضي لم
تكفه دموع الخنساء ! أتسأليننا البكاء ؟ بل أسألينا النسيان ،
والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار القديسين
وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلام قليلة فرشت
بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول !
« هنا الأتريه، وهنا الأوفيس » - اطمأن قلبي ، وقلت : قد
أحكمت الشبكة ، فلنتنظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

* * *

عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه
سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بي أواجه
صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره . واحتوانا المصعد معاً .
لا أدري لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة منى - وكنت أنا
البادئ ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا . هو موظف
كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو

ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت :
لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا
بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتي — يقبل
بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصّف ، حنت على أختي حنو
الأم الرؤوم . دعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف :
— عسى أن تكون ابنتي سنية قد عادت من الإسكندرية
فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمي على وجهي . كنت أنتظر أسماء
رجال لا نساء . وقلت في نفسي : « فلتكن زيارتنا الأولى هي
الآخيرة ، فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها
رجال » .

وذهبت في الموعد المضروب ، وأنا متخرج ضيق الصدر ..
وجاءت سنية . أيها الناس ! لا تبخلوا على بكرمكم
وطيبيتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي ، ولا
تبسموا إذا وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي . ما قبله
جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدثها وأسارقها

النظر . وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس .. ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته ! وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . . ثوبٌ كم أبدى وكم أخنى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح . وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها واصطففت راضية بجانب أختها . أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة ، لما تُخدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله . فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . . فم متمم وعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت إلى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انضرفت - وأنا أجزّ رجلى - جراً - كنت شاعراً بتعب من جس دقيق. تناول روجي

وجسدى ، بأصابع توهم أنها تمسح وترت ، وهى تندس وتنقب ... شعرت أننى عُرِّيت ، وقلَّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت ؛ قيست قامتى ، وسبُرت . وُزنت وكيَّلت . عُركت وعضضت بالأَسنان ، ورُننت على الأرض ... حُركت أوتار روحى واستمع لموسيقاها . . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعت فى النور صفحاته ، وقرئت سطره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة ، والشفاه مستفهمة . . . ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض ولا إبرام ، إلى آخر حياتها وحيائى .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى . ولا تبتسموا من جديد إذا قات لكم لأننى تعبت حقاً ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرنى أنها تناولتنى بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء ، بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . . انصرفت وأنا لا أزال ألوك فى فى لذة مذاقها . . . ولما دخلت شقتنا ، حانت منى التفاتة إلى أختى . فقلت فى نفسى - والأسى يملؤها : « ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغضى الجورب السميك الركبة . لتبدوا شابتين من الريف . . . من غد إن شاء

الله ، سأعني بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما ، وإلا كان فشل برنامجي المرسوم محققاً » .

ولكنني في غدي نسيت كل شيء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً في وجهي . ألا أنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أحرق في ابنتهم خلصة ، فرثوا لحالي وأرادوا تجنبني التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد هياجي ، فإذا بي - وأنا المعروف باتزاني وأدبي - أفقد كل سيطرة على نفسي ورأيتني . لشدة دهشتي آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم ، فضحكوا مني . تصديت لها في الطريق . ألقيت أمامها رسائل . تتبعتها كظللها . كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابنساء . أقسم لكم أنني لا أدرى بكم من الزمن مر عليّ وأنا في هذه الحالة . قد يكون أسبوعاً وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعي ، وأحسست أن العذاب لو طال لقصفتني الألم ودمر قلبي وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهي سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل ، وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل
فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن
أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .
فنظرت إلى " وابتسمت . . .

زرت معها معالم القاهرة . فكأننى سائح يحوس خلال مدينة
مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كاللبغاء
نصيدة النيل ، فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها
ولفتاتها . فى حديقة الحيوان — التى طالما زرتها فلم أجد شيئاً —
كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدية ، عيون
صافية جميلة حزينة ، وشكت لى وحدتها وآلامها . الفضل
لسنية ، فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً .
من زحف منهم أو طار ، أو دب على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

— ما العمل إذا ؟ إن بابا يرفض بتاناً ، لأنك موظف صغير ،
وبربك قليل ، ولا يدري كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة
لئى جاردن سبتى . . .

ولما رأتنى مطرق الرأس غمماً ، أضافت تقول :

— ولكن ماما فى صفى . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب
نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالوا لى إننى ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد
اللب ، ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من
حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أننى — ولا أدرى
كيف — انتهيت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى
تنطبق علىّ ، فى المثل القائل :

« راح يصطاد . . . اصطادوه . . . »

كن ...

... كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس في نفس حسين فرغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها .
 يخف إليها قبل الغروب ، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول
 (الطاولة) . ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة —
 كالمعارك الحربية في غليانها وقعقتها . يتساقى اللاعبون كؤوساً
 مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهما ويسكرون .
 حسين لا يلعب بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير .
 يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار : كعروس ميكانيكية انفلت
 ضابطها . وهكذا هو أيضاً في الحياة يعيش على هامشها ،
 ويلوذ بالشاطئ خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة ، تارة مع الغالب ،

وتارة مع المغلوب . فالحايد المحروم من لذة المشاركة فى الصراع ، يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل . يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطانى تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ، ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجوامع المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج ، وانطلق إلى الطريق . فوته سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها . تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خافية ، لا يكاد النظر يستوعبها فى مواقعها . حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل . لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين . ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن . ويهتر رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة . وقد

تتم باسماء . وقد تحدث شفتاه هذه « المصاة » الضئيلة التي يعبر بها المصريون عن بعض ما في قلوبهم من توجع وعطف وراثاء ... آه ! إنه الليلة آسف على حياته ، نادم من جديد . أما يأتي اليوم الذي يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه في مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ! تلك الفتاة التي خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان .. خشي الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياماً بواجب ، فهي ابنة عمه . . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كللستتقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة المشوقة القل إلى امرأة بدينة خشنة اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرحت شعرها أو اعتنت بزینتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان في الحياة مهنة يمتقها أشد المقت فهي مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبنى الأساس ولا يتعداه ، ثم يجيء آخرون يتممون البناء ويتمتعون

به ... أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك نتائجها ، فتمنح النفس
جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته ، حتى إذا نما ريشه
أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس
ثابت فى مكانه ! وإن تلفت فإلى الماضى يتلفت . . . ما فائدة
تعليم هؤلاء الصبية ، وهو واثق بعجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة
بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون
غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولاً ، على حين أنه لم
يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم
تكن تضر فهمى لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه
يحبس فى نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة
المنطق — وهذه مواهب لا تفيد فى صناعة التعليم ، ولكنها
خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى ، لو أنه مارس المحاماة .
ودّ حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم ، أو يرد
حقاً إلى صاحبه . . . ولكنه عاجز . فما يكرب نفسه أنه يرى
المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ،
أو يرى عالماً تسوده العدالة . هذا تفسير ما فى نظره من حزن

عميق مختلط بغیظ مكتوم . . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول
النهار ينبج أمام تلاميذ كالقروء يلهون ويعبثون ، حتى يحف
حلقة ويضطرب قلبه . هل نسي أن الطبيب قال له إن قلبك
ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تریث حسین فی سیره ، ووضع یده علی مکان
قلبه وتأوه . . . إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه . . . لقد ساءت
حالته الليلة . إنه الإجهاد الذى يخشاه . . . فتى تأتى الإجازة ؟
متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى
بالمزارع . . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . . .
حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . . عشر
سنوات حسب . . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات
مثلها من مستقبل عمرى . . . سنة بسنة . . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر ، حتى خيل
إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى
إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر

هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها
لعله وهم وخيال . فالليل عالم مجهول مليء بأصوات غريبة
لا نتيبها . . . ثم سار قليلا . فإذا يد تلمس كتفه ، والزحير
يكاد يشق صماخ أذنيه . . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف
عند الذعر ، ولم يكن يصدق . في تلك اللحظة أحس كأذ
بدأ قاسية جمعت شعره في قبضتها وشدته شداً قوياً يكاد يتمزق
منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التي وقعت على كتفه
لوح من الثلج . فقد جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب
لها وتصب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلاً نحيفاً هو
إلى القصر أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كشياب
التشريفات ، من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً
بصورة قديمة لأحد جدوده . . . والغريب أن هذا الثوب كان
فضفاضاً كأنما فُصِّلَ لرجل أطول منه وأشد امتلاء . . . فقد
رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة في بنية منشاة واسعة . . .
يريد ذقنه أن يعتمد على حاقها فيشتقها فرط ارتفاعها . . .
لم ير له يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، ليس فيهما

ذراعان . حلق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب . ورأى — أو خيل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً ذا عينين وأنف وأذنين ... ولكن عجباً ! لماذا لا تستقر نظرتة على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة ...

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التى غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه ، إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التى كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاذه ... وخامر قلبه شىء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

— لا مؤاخذه يا سى حسين ... خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولاً جداً فى القصر العينى وفى مستشفى الحميات ... فأنا — كما ترى — مجهد حقاً ، ولى عمل شاق لا ينتهى ... سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقرى عشر سنوات مثلها ، وأنا فى ضيق علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

— لا شك أنك سعيد في حياتك . فلم أر قبلك أحداً
يتعلق بالدنيا تعلقك بها . . .

— لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى . . . دعنى
أتذكر . نعم . عندى أب قارب الرحيل ، وقد قدر له أن يرى
ابنه الوحيد الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك
حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم . وهذا الشاب لو انتقل عن
هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم . سأعطيه سنة حتى
ينتهى أجل أبيه . . . وهذا الفتى أحب فتاة غاية الحب ،
سيموت قبل الزفاف — وليس أشهى على من أن أمتعه بها ولو
شهرًا واحدًا . فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفى لبعض
هذه الأعمال الخيرية . . . لهذا أسرعت إليك . . .

خفت الأبحرة المنتنة شيئاً فشيئاً . . . واستطاع حسين أن
يقارب وجه هذا الغريب . . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك
فى وجهه وقال :

— مهلا ! مهلا ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها — يا عزيزى
الأستاذ — ليست بدون مقابل . . . فهل أنت قادر على أن
تردنى القهقرى عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جَوْاً من الطيب والرائحة الذكية تسطع
من مخاطبه . . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع
ذراعه في ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يتسم :

— ألم تقرأ في القرآن الكريم « ادعوني أستجب لكم » ؟
إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة
شاقة كمهمتى . . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتى..
حرصاً على رضى مولاي . . . وأبى لحسن الظن بكرمه ومنه . . .
لم أتمس منه طلباً من قبل . . . فلا أظن أنه يجيب رجائى
لو سأله هذه المرة . . . كن واثقاً أننى أحقق لك ما ترجوه ...
ود حسين لو أنه تردد قليلاً . أو سأله مهلة ليفكر من جديد..
ولكنه خجل من رقة محدثه ، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل..
— لا مانع عندى . . .

— يا لك من سخى شجاع . . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلاً :

— لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا . . .

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

— سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا في تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

— اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

— هذا القول لا يكفي . . . إنني أريد منك أن تهني

السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معي :

« أهبك عشر سنوات من عمري طائعاً مختاراً ، وأنا في

تمام عقلي وإرادتي ، على أن أعود القهقري عشر سنوات مثلها » .

كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة . . . فإذا بالرجل

يربت على كتفه ويقول :

— « إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك

بأن يقام له تمثال » . . . ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا

يرى حسين على أى قدمين يسير . . .

واستمر حسين في طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط

بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان

على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك » .

وفجأة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقري عشر سنوات محتفظاً بما فى من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . . . ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . . سينعم بما حرم نفسه منه . . . سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرع خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفه . . . فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتنى سألته كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة، فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة القمامة .

اعتاد حسين - إذا عاد فى مثل هذه الساعة، أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك . . . ولكنه فى هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادى :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :
 - عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني ،
 وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة ونخنت له طعامه ، وحدثته عن
 بعض توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً
 على قلبه هي زوجه ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة
 داره ، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت
 وثارت وضجت ، واكنه لم يسمعها تؤله بكلمة تجرح قلبه . . .
 حن لها حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهر معها
 ويتسلوا بلعب الكونكان . . . وهي لعبة الورق الوحيدة التي
 استطاع أن يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً طويلاً . . . وتناول حسين ورقة يربح
 بها الدور . . . فرفع يده مسروراً يقول :
 - كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل قد
 انتصف

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

— السمسار منتظر يريد أجره .

أطرق حسين برأسه ذليلاً . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى . . . لم يبلغ إirاده في هذا الشهر عشرين جنيهاً . وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره ، فقد طالبتة آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . . من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدري ما يحول برأسها . . . يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنتفلت منه طليقة . . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التي يتبادلانها كثيراً . . . ثم — وهنا العجب — يضمهما الفراش فينسيان كل شيء في ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء في الصباح . . . طبيعة حيوانية بتعامى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو عاجز في قبضتها ، غريق في أحضانها : ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن أولى بها — وهى ابنة عمه — من زوجها العامى الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته في الزواج منها ؟ ولكنه تكبر ونحان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . . الحمامة ؟ هي مهنة
 مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام
 القاضي بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق . . . كل
 ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع . . .
 آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده في الحمامة
 والناس كالوحوش الضارية والذئاب المفترسة ؟ إن اكتسى وجهه
 الظالم بغلالة سوداء بغيضة ، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع
 رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضئاً . . . ولكن حسين يتطلع إلى
 وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . . كل منهم تنطوى
 نفسه على الغلّ والحقْد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به
 جُبنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . . وعمى المظلوم عن نبل
 المطالبة بحقه وثوابها ، وامتلاّت نفسه سُماً . لا يرضيها استرداد
 الحق ، بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظلماً ! كم كان
 يود أن لو اشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هي
 مادة عمله ، وليساهم في بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق
 الفاضلة ، تبدأ به مصر حياة جديدة . . . وهل هناك أنبل من
 وقفة المعلم أمام صف من الصبيان ، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى

كل حركة تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس . وأى مهنة أخرى تهيب لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما الآن فإنه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مضيقاً . . . أحقاً إنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا - وهو غير صحيح - فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس فى نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط . وهذه صفات تؤخره فى المحاماة، ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

- لا أراك إلا والليل متقدم . . . وما أظنك غبت فى هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى . . . أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء فى لحو وعبث .

- كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينى متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد .

- إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم

ويلاطفونهن ويتسلون معهن . . .

- وماذا تريدن ؟

لَوْتُ خَرطومها وتركته

سار وراءها ذليلاً يقول :

— آمال ! تعالى . تعالى * نلعب الكونكان معاً ، فأنا مهموم

أريد أن أتسلى . . .

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله

لإرضائها . . . فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له . . .

واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور .

فرفع يده بها مسروراً يقول :

— كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس

بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه

الذكيّ الرائحة على حسين يقول :

— يا سيّ حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدي

من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

— نعم حديثك ولا تخف عني شيئاً . أكاد أفهم الآن

كل ما كان غامضاً على ...

— نسيت أن أخبرك في ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ
من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التي تبرعت بها...
فهل أنت مستعد؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح
متزعج يقول :

— حسين ! حسين ! ما بك ؟

— من أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفني ؟ لقد كنت أماً منذ لحظة
سلياً معافى . فإذا بك ؟ هل يؤلك شيء ؟ رد على ! أأدعو
الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفثيه ابتسامة خفيفة .
ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث كيف
حدث ! !

القديس لا يحار

تحلّل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء، ورحل
يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا وذنس المال ، ويدعوهم
إلى اللحاق به في هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً ولا يستقر
في مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة
والاستهتار ، خُسُنُ الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إيواؤهم
وإطعامهم . . . وتشيعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم
يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل
الذى يسير في مؤخرة الموكب : مديد القامة ، عليه سمة النبل ،
متشد الخبطة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة
أنامله ، يشد بها حافتي مسوحه ، فكأنها مشبك من الأحجار
الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية .
تربى في كنف الغز وعاشر السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس .

بلا مات الأب وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه
للدلل وقال له :

— لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ،
بمقامك في قلب أبي الكريم كان فوق مقامي ، فإن شئت عشنا
معاً لك عالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر
واعتكف في كوخ صغير أياماً طويلة ، خرج بعدها يعلن لمن
حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والنام يدعوهُ أن التحق
بالقدّيس . فلما تراءى الخبر إلى الناس عدوها كبرى معجزاته ،
وأكبروا في النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره
التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز في سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس ، وتزاحوا حول الموكب لا
ليروا القدّيس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف
يبدو في ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفساً
وأهنأ ببطعاهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن يسبحن
لله الذى سبقت إرادته ، فاختر هذا الوليد لحياة كلها حرمان
وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات

فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الحشنة ، وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . . . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ، فقبل له إنه لثرى عظيم لاهم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة سيره ، ودخل القصر لهدم منه للشيطان معقلاً ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه . فوجد الثرى جالساً أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواله أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه ، لعلهما تنبسان بأمر .

امتلاّت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراره ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور

أو دهشة ؟ أم هي سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشر . ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر . وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :
— لو أنك مررت علينا من قبل : لخطت لك هذا المسح
على قدك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتبيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ! فلست دالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— وبلى إذاً ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ، فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم .
وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة هازئة ، كلها عطف وفهم ، فيها بريق غين النهم وهو جائع مقبل على

أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .
 جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه
 أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .
 فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين في أن كل هذا سراب ،
 وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كل آذان لسماع
 أناشيد التسابيح بحمدك : الصاعدة من الكون ، المدوية في
 الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتي سماعها !

— إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ، ولم يحرم منها إنساناً
 له قلب وبصر : فذهابك الآن تفرع باب الله دليل على أنك
 عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله . وهذا ماضٍ سيعقد لك في
 مستقبلك وإن جاهدت . خذها عني : إن الله لا يحب من
 عباده السائل اللحوج اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه
 بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هلم اعترف أنك فهمت أنني أعلم لماذا ارتديت المسوح .
 أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها
 نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضي ، فإذا هي تقصر

عن حد تتخيله ، وتسير في مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدي الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إنني أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يرطب قلبك . وما أشبه الآن بصخرة في أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك ، ليصح لإيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد . سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً - فإذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمى إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت يدي ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ، ورقصنا فتمثلت النعمة في حركاتنا ، ثم انفلتت عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى . . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهدت كل شئ من حوله . لو أنه أطاع وسواسه ل هوت يده عليها بشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أو لئال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطأ خطوة ليس عنها
نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق
هو نفسه . ولقد بقي في أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) .
إنه سيظل حيث هو ، جاهداً في طريقه . محتملاً ما لا تقوى على
احتماله الجبال ، آملاً أنه سيرى في النهاية بارقة الرضا في وجه ربه
الكريم . . . ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه في متناول
يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إنني عطشى
وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت
الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت
الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع
الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء .
وترك الثرى مائدته . وقف يقول للقديس بصوت يغالبه
البكاء :

— أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك .
سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع . سأترك
مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه . سأتبعك كظلك .
ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : زوجى ،

وأبنائى وزوجاتهم ، وبنائى وأزواجهن ، والأصهار والأبناع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم بحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تأهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :
— لو تبعوك لحرب القصر ، وبارت الأرض ، ونفقت الدواب .

ومن أين لك إطعامهم وإيواءهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكفون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يترعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذا ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق . فلا بد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة . فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس — متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ هؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار . فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يا بني ! احمدا الله أن هداك أنت ومن معك للحق . . .
على يدي ! إن الطريق الذي تريد أن تسلكه وعمر ، لا يقوى
عليه إلا القديسون أمثالي . فامكث ، مكانك وأقبل على عملك .
واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على
شؤون خدمك وحشمك ، وحقوقك وضياعك ، وتمتع بأكلك
وشربك ، على أن تعلم أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله
لنفسك في كل لحظة ، حتى تعلم أن كل ما حولك زائل . وأنت ملاق
ربك فحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر .
بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر
القديس يقول :

— لا تحزن . إنك ستمكث في القصر — في نظرك —
ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعي . ما قيمة التمسك بالذليل
واقتفاء الخطوة ، في حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟
ستتبعني بروحك ، بإيمانك . . . ولك على أنني لن أنساك في
يوم . فلن يغيب عنك ندائي ، بل سأحمل شخصك في قرار

قلبي . سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم لتتحقون بها ،
فتربطني وإياكم .

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح البهجة .
ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجه ، وداعب
أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم
بالانصراف عن يساره ... ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو يتمم
لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه
بينهم ، لا في آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه
يلوذ به . وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعوني ! »

ووقفت الفتاة صامته برهة ، ثم همست تقول :

— يا له من غر مسكين لم يفهم الوحي . لما نادته رحمة الله

أن ابق ، فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وشفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

بينى وبينك ...

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك فى ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ؟ أفى يومنا المسير أم فى غد لم يأت بعد ؟ أم هو فى ماض من العمر قد ولى وفات .

كان الطريق هو الذى يقبل الى . يأخذ بيدى ، ويرينى اتصاله بالأفق ، بالسما ، بالأفلاك ... على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله ...

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا ينتهى . المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسما غطاء ، والنجوم ترمق الأرض شزراً ... الدور سجون ، والناس أطياف ذاهلة لا تدرى ما القدر ، وإن شكت كفرت ...

* * *

ما رأيت عاملاً في ترام أو في متجر أو في مقهى إلا سلم عليك سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صداً للألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث
تهين ، وما تقدرين أى مال تنثرين ؟ أفأنت عمياء كأملك الغريزة وأبيك الحظ ؟

* * *

السينما مزدحمة وأنت لا تعبين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس سيكون ، وأنت ضاحكة :

— أبكى من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، من حقيقة ما عشت ،
ومن يدرى ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة تقولين :

— أبكى من خيال ؟

* * *

نقلت إلى أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ،

حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :
 — أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك كالعجين
 فلتنهأى به .

ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت . صدقت
 نظرتك فى أم لم تصدق ، سيان عندى . إن الحب الذى يغمر
 قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق
 النظارة أو صفيهم ...

* * *

ما أظنك أحبيت أحداً أو شيئاً حُبِّكَ الثوب الحديد .
 هو حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ،
 سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير ...

على لسانى دعاء :

— ألا فليذلك الحب يوماً ...

ولكن قلبى يهمس :

— خيب الله منك ...

* * *

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أننى سأوى إلى عشنا

فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلتي بكتاب أقرأه
ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتشاءبت أخرى .
حتى إذا ما انتبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت
الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت
بالناس . . . أو يدور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء ؟
هيهات لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلت . . .
لبثت أنتظرك ساعة ، ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسابيعين ،
شهراً وشهوراً . . . وما زلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى .
ولكنى أخشى — إذا أنا لم انتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن
ألقاك في الطريق — أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك
قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك
مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين
عزيزة على ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندي . . . فلاتحمل
الآلم طول الدهر خوفاً من إساءتك في لحظة عابرة قد تأتى
وقد لا تأتى . . .

* * *

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعتة :

— حذّرني الطبيب من الكعوب العالية .
وألقته عنها ميسّاً في عنفوان الصبا . منغني كرهى لهذا الحذاء
السخيف الذي همّ بأذاها ، من أن آسف على موته السريع . . .

* * *

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك
الكامنة في نظرتك . أأنت ساذجة قد تعلمت المكر ، أم
ماكرة قد تعلمت السذاجة ؟ اكذبي ما شئت وامكري ، فليس
أحب إلى قلبي من كذبك ومكرك . . .

* * *

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت
ولا اخترت . ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحبه نظرة فاحصة
من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنت
إذا انظرتك وفات — كالعادة — ميعادك . أتطلع إلى قطعه
واحدة واحدة ، فما حنت يوماً وأسعفت تساؤلي بجواب . حتى
إذا أشرقت شمسك ، تلاشى كالظلام من حياتي .

ولكن ها قد حلّ يومك — ككل ظالم — أيها الأناني
الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق

السكوت . لا ينقطع تساؤلك : « أين هي ؟ » « متى تعود ؟ »
يكاد ينشق خشبك عيوناً جائعة تتلهف على نبسة من شفقتي ،
وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بي وتستجديني الجواب .

أيها الثرثار ! ليجّ في الكلام ما شئت . فأنا اليوم - ولم
العجب ؟ - كما كنت أنت بالأمس - أبكم ! ولكن لا عليك
أيها الوفي الأمين . أيجلّ لجريح أن يعبث بجريح ؟ ليس من
رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها
الرفيق الكريم لا أدري أين هي ولا متى تعود ! فضم بلواك إلى
بلواي لعلها بهذا عليك تهون . . .

أيها الرفيق اللقيط ! لأنت عندي الآن أعز من أطهر
الأبناء .

• • •

أيها الفتاة الغريرة . . . لم يكن لي أمل فيك ، ولا بنيت
من حبك أكوأخاً ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصرَّ
يومه ، فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بي ويفيض عني .
كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذي أغدق على

بالأمس - غير مسئول - يتقاضانى اليوم ثمن الإسراف بالحرمان .
وكم من محروم مظلوم ! ..

* * *

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضى ،
وكل حادثة ساقته إلىك . أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول
ولست أدري عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكا قلبي من
ظماً . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك
الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل
أنت أم الحياة ! ...

* * *

خاللتك عاماً وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو
تبدلين رأياً . . . ما تلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك
بالفلسفة . . . ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزيفة ليهتر
لها رأسك استعباراً . . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى
لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك
اللحظة . تنفجر منك الحياة كمنايع الأنهار ، لا يههما أبدد
النهر أم اغتاله مستنقع . أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر

البعيد . تثب الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك .
تندفق من على جسدك وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من
معينها الصافي فأجد فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمر... وأنت
— لشقائي — لا تشعرين . فليس أكبر الألم أن لا يشعر الحبيب
بألمك . بل أن لا يشعر بسعادتك . . .

* * *

ما من مرة احتضنتك بين ذراعي إلا شعرت بقسوة الموت
وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق، تنفجر منه الحياة ، يصبح
يوماً ما أبخرة غضة وعظماً نخرة . . .

* * *

ألبستها العاملة أمام المرأة كل ما لديها من معاطف . واحداً
بعد واحد ، فإذا بجمالتها يطغى على التغيير والتبديل ، تبدو لها في
كل معطف فتنة جديدة . . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار
جسدها أمام المرأة . وجهها ساكن ، ونظراتها ثابتة على توأمتها . . .
« رفقا بجيديدك يا فتاتي ! » ثم خلعت ، وعادت إلى بقية المعاطف

فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق
وقالت متراخية :

— هذا !

وهكذا تشاء الصدف أن لا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !
— تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالى
أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضى به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . . .
كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لى أنت غيره ... »
دعوت الله أن يقسم لى شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن
عليه بالشفاء . . .

* * *

كنت معك فى أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق
شفتاى الخمر ، وما بينى وبين الله عامر . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ،
لا لأنساك ، بل لأقوى على جر الماضى إلى الحاضر . لأعيش
معك من جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله ..



لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق .
 أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنت خرجت عجلي
 لأمر . كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهمة
 الملابس . على كتفك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك
 حقيبة لعلها حقيبة خالتك . كنت لا تشعرين بنظراتي تعانقك
 من بعيد ، وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى ... هذه
 التى أسرتنى مضاعفة بين الناس لا يشعر بها أحد . ملكة نزعت
 عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال
 جناحيه وهو صافٍ فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل
 ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا ، كنت أهدأ نفساً . حسبتنى أشد
 قوة على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين
 الباب حتى هتف قلبى : « هى والله » ؟ !

كوفى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا
 على محياك ، بل فليشوئك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت
 عندى . لأنت آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت

بك حياتى وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك
لم يزدد بها علمى . هى تجربة أصبحت بعدها أكثر فهماً
لألم الخلق ، وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذى أبدله
باليمن ، تسترده سخرىتى باليسار . . .

* * *

ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . . حين
يشيب شعرى وتتساقط أسناني : وتنطق عيوني . حين يحتضنى
الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً
وأستريح . حين أفلح أخيراً فى جر رجلى جراً لأبحث عن الشمس ،
مصدقاً فى الناس ، وهم حولي ، تحديق المشنوق فى جلاديه .
حين لا أستطيع أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامي ،
أعد أنفاسه قبل أن يعد هو أنفاسي . . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندى سوى
الموت . . .

ولكن ، ألا من يخبرنى عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرت
عليك السنون ؟ . . .

* * *

هذه المخلوقات المنتشرة في الطريق ، هاربة من الدور
تارة ، هاربة إليها مرة أخرى . . .

هذه الخثالة المتوسدة أرصفة المسالك . . .

هؤلاء الباعة الجوالون في الزحام ، يعيدون بأنفسهم عن الزحام
كالأرواح الضالة . . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حلول جيل منهم محل جيل
إلا كالثعبان يبدل جلداً بجلد . . .

هكذا كنت أراهم . . . أما بعدك فهم لدى الآن سياح
يهبطون بلداً غريباً . وجوههم بلهاء في جهلها ، نظرهم تأهة
لا تستقر ، ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شيء :
« هذا لي ! »

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤياك . . .

* * *

عندما كنت أخرج معك في هدأة الليل ، كنت أشعر
أننا وحدنا في هذا العالم ! تناسينا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل ،
نسينا الناس .

وكان في نسياننا أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم . بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ،
والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .
فأجد في نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

* * *

ألف ألف فتاة مثلك عاشت . فلمعت عيناها لمعان عينيك .
وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن
في التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموقى
الجانعات للحب بعد طول الرقاد . . . فى قبلك لهيب ألف ألف
نغر ظامئ . . . أصبحت من أجلك أحب الموقى مثل حبي
للأحياء . . .

* * *

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك .
وهل يستطيع من عاش معك معدوم المنطق . أن يعود فيفهم
العلل والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبي . . . إذاً
فلن أسأل ما حييت . وإذا مات العالم معتراً بعلمه — فسأموت
أنا معتراً بجهلى . . .

* * *

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق العقلى، ليثبت أن الإنسان مسير لا مخير... فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره...

وتجيبين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة من عينيك لأؤمن بالقدر وبالبحر... لأننى ألغيت معك منطقى وعقلى . وقنعت بالروح فأمنت .

* * *

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبها : أيجيب الرحمن دعوة العاصى ؟ فلانى أريد إذا ما وقفت بين يدى الديان أن أسأله ، قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك...

* * *

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمتا العجوز فى اللهب... فإذا يكون شقائى باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ أأصرخ ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد؟ لا ، وألف مرة لا ، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمى يا حبيبتى أنى كنت بشابلك فى ظلاله ، وإن حرمنى هذا السلام لذى الأخيرة .. لذة التشفى !

في المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثا حاولت
الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد أن ذقت
معها طعم الوجود؟ عودي . ارجعي أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك
وأوهامك ، فلست والله تلدين بعد اليوم ، إذ تطوف بك أشباح
السعادة : أهي ذكريات الماضي أم آمال المستقبل ؟

وفي الصباح أنفض على بسمه الفجر ونشوة الطير — أسمعها
تقول : « أنت يا هذا الذي سعدت بالحب . قم ! إنما العيد
لك ! » مهلا أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ،
بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

* * *

ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفأت أنوارها ، وفاضت
كالقذح أترعته يد مرتعشة لسكير زائع البصر . . . واكتظت
طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، لم
يبق موضع لقدم في ترام ، أو في سيارة ، أو في ملهى . رأيت الكثيرين
في هذا الزحام كالأسرى ، على وجوههم علامات التأفف والكرب
والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شيء يضيق به الإنسان ضيقه
بقرب أخيه الإنسان . . . أما أنت فكنت في الزحام كالسمكة

في الماء، تطبق عليك الجموع، ثم تنكشف وتطبق، وأنت ناعمة
البال قريرة العين، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس
في الزحام، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك. ما سمعتك تشكين
أو تتأففين... ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك؛ بل
كنت مرحة كأنك في مهرجان... وكما رأيتك سعيدة بالحياة
رأيت الحياة سعيدة بك...

* * *

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين :
— ... أعجبنى الثوب لولا أزراره ...

ودوت صفارة الإنذار، وهاج الخلق وماج. هل تذكرين
كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين، والموسرين هارين؟
رأينا شباباً في شرخ الصبا غير عابئين، وشيوخاً على حافة القبر
زابلهم كساحهم فهم يحرون إلى المخاض نشطين...
وقفت مكانك وتلفت بئمة ويسرة، ثم قلت :
— أنا خائفة !

أخذتكَ إلى أول بناء لقيناه، وجلسنا مع بوابه النوبي كأن
ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفرق طول الحياة...

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع
وانفجار القنابل ... ولما اهترت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ .
امتقع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك ...
ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقامت واقفة ، ووضعت
ذراعك في ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :
- ... لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه
مخدوش ...

• • •

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن
لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشد سحراً ، ثم أفر
ولا أعود . لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد
أذابك في يَمِّ الحياة ، وهيات أن تعودى ، ولو عدت لعدت
غير ما كنت ... أللغيرة ؟ هل تخشى روحى أن تكون كل
امرأة جديدة بين ذراعى رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه ؟
قد يكون هذا ، ولكن هل لى أن أصارحك ؟ أننى أفر ضناً بنفسى
على غيرك ؟ فهذا الذى تحسبنيه فى انمحاء هو غاية الكبرياء
والاعتزاز ... هو الحب !

• • •

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى . كم أقسمت صادقاً
بين أيديهما أحرّ الإيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . . .
ثم افترقنا . . . وهدأت . . . ولم أعد أذكر شيئاً . . . غير أنى
كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية . وكم
فاجأتُ شفتى تتمتان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين ..
فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح
على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأختر منه ، والحياة
تتشبث بتلابيبي فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على
مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك !
ولكن هيهات لى أن أنسى أننى نسيتك . . .

• • •

الآن بعد اختفائك ، أقول وأنا وَّجل : هل أحببتها لأنها
ذكرتنى بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سداجتك
لقيت من خلت أننى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات
إلى الأبد . ولِمَ نخدع أنفسنا ؟ الذكري إنما نجر من القبر هيكلًا
نخرًا بالياً فى لون أغبر وكفن حائل ، أجوف قد نزع منه الكلام .

نوحى فلا يفهم ، ونشير فلا يفطن . عدم متحجر ، قائم ونحن
نضطرب وندور ، فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور
خافت ينبعث من حى ، كاسف جميع الشمسوس الغاربة ! الآن
أومن أننى أحبيت من سبقك ، لأنهما كانا تشبهاتك أنت . . .

* * *

يا رب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حتى المهزومين ،
وثورة المحرومين وقد تاهوا فى ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا
مؤمنين !

وسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ،
وكفر كفر الأعمى بالنور . . .

وسعت رحمتك من ركبته الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى
وأبى السجود ، آنفأ من أن يرسف فيما توهم من قيود .
بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجدف
وتمرد . . .

لا أقول بمثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت
الرذيلة ؟ ولكنى أسألك يا إلهى : لماذا جعلت الحق على النفس
ثقيلاً ، والباطل هيناً ؟ لماذا خلقت الفضيلة عملة والرذيلة فاتنة ؟

لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً
لا يحط إلا ليحوم ؟ يفزعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده
وجد ووله وهيام ؟

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيد العبرة إلا استهتاراً ،
ولا النصيحة إلا عناداً . . . لم جعلت السعادة سراباً ، والوفاء
محالاً . والنيات مقعدة ، والنسيان عداءً !

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم عن ثاقلت
قدماء في الطريق السوى ، فلم يقو على اللحاق بالقافلة تنفصّد
عرقاً ومللاً . . . وانحرف إلى البيداء ضالاًً يناجى النجوم ،
وكل زاده نجواه لنفسه :

— ما ظننك بالله العلى القدير ، الرؤوف الكريم !

* ~ *

أجوس بعدك خلال القاهرة ، فأعود من أحيائها الأوروبية بقلب
فاتر كليل ، وطعم بين المر والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة
ابنه الغنى العاق ، وإن عز على قلب أبيه . . . يضع منى شبحك
في الأوبرا وجروبي ، وبين شبرد والكونتنتال ، فإذا قادتني
قدمای إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ،

ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبي هصرأ . . .
فأنت عندي هذا التاريخ . . .

وإذا مافاض بي الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً
جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رءوسهن سلال
الخضر ، ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين . معتدلات القوام ،
في وجوههن المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا
ثرثرتهن . . . عندئذ ألقاك . . . فأنت عندي هذا الوطن . . .
ويغلبني الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » ، حين أتتبع
بنظري عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا
ونساء ، شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من
قبور الفراعنة ، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد في مدينة
الأموات .

فأنت عندي هذا العيد !

* * *

الآن أذكر ، والآن فهمت

في صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول في
خان الخليلي ، فنادتني من سجنها الزجاجي مسبحة جميلة وأشارت

إلى أن خذنى معك .

تناولتها بودّ . وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر
صادقة وثقت أنها ستدوم . تساقط حباتها كقطرات الماء
على الغدير . حديثها الخافت إلى : عن الألفة بين القلوب فى
عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ،
عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء . . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث
لا أدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟
جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فإذا هى تنقص
حبة . دست يدى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد ،
ولكن عبثاً ! فحزنت وأسفت .

قد تسألين : أكلّ هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ،
وفى يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتى ! لا يحيا جماهاً إلا بهذه الجبة
الواحدة الصغيرة . . . التائهة . !

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

دارالمعارف بمصر

تقدم لناشئة العروبة

بين السابعة والثانية عشرة من أعمارهم

المكتبة الخضراء للأطفال

تحفة رائعة من القصص الخيالية العالمية

- يعتز بها كل قطر من الأقطار العربية ؛ لما فيها من فخر للكتاب العربي .
- يعتز بها كل فتى وفتاة ؛ لما فيها من متعة جميلة لعيونهم وقلوبهم .
- يعتز بها كل والد ووالدة ؛ لما تقدمه لأطفالهم من غذاء صالح لعقولهم ونفوسهم .
- يعتز بها رجال التربية والتعليم ؛ لما فيها من وسيلة طيبة لتحبیب الكتاب العربي إلى الناشئة ولتوجيههم إلى طريق المعرفة والخير والبر .

صدر منها ١٥ كتاباً

خدا المعارف دارالمعارف

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠	مليم في ليبيا	١٥٠	دينار في الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥	فلساً في العراق والأردن	١٥٠	فرنكاً في المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠	فلساً في الكويت	١	ريالا سعوديآ
٦٠ مليمآ في السودان	١٢٥	مليمآ في تونس		

736
53



0665911